في رده على الشوباشي

د. إبراهيم عوض يهتف بحياة سيبويه!

القاهرة - مكتب «الرياض» - شريف الشافعي

الاربعاء15 ذي الحجة 1425هـ (16 ذي الحجة حسب الرؤية) - 26 يناير 2005م - العدد13365:

هناك شيئان لا نفكر في التخلي عنهما ولا في مطاوعة الغرب في التفريط فيهما أبداً؛ همـا: اللغـة، والـدين!». هـذا مـا» يقوله الناقد الدكتور إبراهيم عوض الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس في كتابه الجديد «لتحيا اللغة العربية: يعيش سيبويه»؛ والذي صدر مؤخراً عن مكتبة الثقافـة بالدوحـة كنـوع من «الـرد على هجـوم شـريف الشوباشـي وكيـل وزارة الثقافة في مصر على لغة القرآن وقواعدها» في كتابه المثير للجدل «لتحيا اللغة العربية..يسـقط سـيبويه» الـذي صـدر مؤخراً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. ويشير الدكتور إبراهيم عوض في مقدمة كتابه؛ الذي صدر في مائة صفحة من القطع المتوسط؛ إلى أنه قد أعد أفكار هذا الكتاب بصورة مبدئية حينما شارك مـع الـدكتور عبـد المنعم تليمـة والـدكتور عبد الله التطاوي والكاتب شريف الشوباشي في برنامج تليفزيوني بعنوان «للود قضية» أذاعتـه قنـاة التنـوير المصـرية؛ حيث دارت الحلقة حول مناقشة كتاب الشوباشي وما ورد فيه من آراء حول اللغة الفصـحى والعمـل على تطويرهـا كي توائم العصر الحديث من وجهة نظره.

وبصدد رده على اجتهادات الشوباشي اللغوية؛ يقول الدكتور إبراهيم عوض: «زرايـةً من الشوباشـي على اللغـة العربيـة يزعم أن عشق العرب الأول يتمثل في التلاعب بالكلمات، أي أنه يريد أن يقول إنهم لم يكونـوا ينظـرون إلى اللغـة على أنها وسيلة للتفاهم بل للعبث وإضاعة الوقت جرياً وراء سجعة أو جناس أو طباق، أو لتحبير رسائل تقرأ في ذات الـوقت من اليمين للشمال وبالعكس..، إلى غير ذلك من ألوان الزينات الشكلية التي يؤكد أنها لا تفيد في شيء. وهو يشـير في هذا المقام إلى ما كان يفعله واصل بن عطاء؛ الخطيب والمفكر المعتزلي المشـهور الـذي كـان في لسـانه لثغـة؛ فكـان يتجنبها في خطبه مستبدلاً كل كلمة فيها (راء) بكلمة أخرى ترادفها من هذا الحرف..، رغم أن هذا المثال إنمـا يـدل على عكس ما يريد الكاتب، إذ لا أظن لغة أخرى تستطيع أن توفر مثل هذه الإمكانية العجيبة لأحد من أبنائها بأي حـال. كـذلك فإنني - وإن كنتُ في ذوقي الكتابي كأبناء عصـري من الكتـاب والأدبـاء ممن لا يتبعـون في أسـاليبهم سـبيل المحسّـنين والمزخرفين - لا أستطيع أن أنكر أن هذه التزيينات إنما تدل رغم ذلـك على مـدى مـا تتمتـع بـه هـذه اللغـة العجيبـة من إمكانات صوتية ومعنوية، وعلى ما كان هؤلاء الأدباء يملكونه من موهبة أسلوبية وعقلية تتيح لهم هـذه السـيطرة الرائعـة على لغة أمتهم. صحيح أن بعضهم كانت تستغرقه النزعة الشكلية إلى حـد مبـالغ فيـه بحيث لا يقـدم لنـا مـا يكتبـه شـيئاً فكرياً ذا قيمة كبيرة، بيد أن كثيراً جداً أيضاً من النصـوص الـتي تزخرفهـا البـديعيات كـانت تحتـوي في ذات الـوقت على مضمون عقلي وأدبي رائع؛ ومنها (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعـرّي، ومقامـات الهمـذاني والحريـري الـتي يـرى فيهـا نقادنا المحدثون حتى من اليساريين أنفسهم الأساس الأول للقصة العربية القصيرة، وكذلك (ألف ليلة وليلة) التي بهـرت المستشرقين وكتبوا عنها البحوث المطولة ورأوا فيها إبداعاً أدبياً قل أن يوجد له ضريب. ومع ذلـك كلـه فـإن العـرب لم يكونوا كلهم من عشاق التلاعب بالكلمات؛ فلقد كان هـذا الاتجـاه محصـوراً في بعض العصـور فحسـب. وحـتى في هـذه العصور لم يكن كل الكتاب يجرون عليه في مؤلفاتهم، ولا كان الذين يجرون عليـه يتبعونـه في كـل مـا يؤلفـون». وممـا يقوله د.عوض في كتابه في موضع آخر: «لقد نال المترادفات من هجوم الكاتب الشوباشي وزرايته نصـيب كـافٍ، فأخـذ يتألم من اتساع هذه الظاهرة في لغتنا داعياً إلى الاكتفاء منها بالقليل. وأنا في الواقع لا أدري كيف يمكن أن تكـون هـذه السمة مَسَـبَّةً في لغـة القـرآن. تـرى هـل يمكن أن نجيء إلى رجـل شـديد الـثراء بجـده وعملـه ودأبـه وذكائـه وحيويتـه وطموحه فنقول له موبخين: لماذا كل هذا الغنى والنعمـة الـتي أنت فيهـا؟! لم لا يكـون فقـيراً؟! فبالنسـبة للمترادفـات؛ فليقل لنا الأستاذ الفاضل كيف يمكن أن نتخلص من هذا الفائض اللغوي؟ هل نعمل له محرقة؟!».

وحول مسألة قدسية اللغة التي أثارها الشوباشي يقول د.عوض: «من النقـاط الـتي يثيرهـا الأسـتاذ شـريف الشوباشـي دون أي داعٍ مسألة قدسية اللغة العربية؛ حيث قـال - وأنـا أتفـق معـه في هـذا الـذي قـال - إنـه لا يوجـد في القـرآن أو الأحاديث النبوية ما يدل على صحتها رغم ما ذكر من أن بعض المتحجرين؛ حسب وصـفه؛ يـرون أنهـا مقدسـة فعلاً. وهـو

يرمي من وراء هذا إلى أنه لا مانع من الأخذ بما يدعو إليه في كتابه من تغيير اللغة على النحو الذي يقترحه؛ ونرى نحن أنه سيكون له عواقب وخيمة إذا تحقق ما يريد».

والدكتور إبراهيم عوض حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة أوكسفورد البريطانية في عام 1982، وله عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية، من بينها: «في الشعر الجاهلي»، «في الشعر الإسلامي والأموي»، «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين»، «في الشعر العربي الحديث»، «مناهج النقد العربي الحديث»، «السجع في القرآن»، «ثورة الإسلام»، وغيرها. ومن بين ما يقوله د.عوض كذلك بصدد تفنيده لآراء الشوباشي: «يوضح الشوباشي أن اللغة العربية الفصحى هي اللغة الوحيدة في العالم اليوم التي لم تتغير قواعدها الأساسية منذ 1500 سنة كاملة، ويرى في ذلك الأمر جموداً وتحجراً ينعكسان غالباً على العقل العربي. وهذا كلام لا نوافق المؤلف عليه، وخاصة أن كل ما قاله عن عيوب هذه اللغة هو مجرد دعاوى قائمة على الشبهات المتعجلة. والواقع أنه من الصعب الاقتناع بأن طول عمر العربية دليل على التحجر، فهي لم تكف يوماً عن التطور، والتأليف بها في شتى المجالات والعلوم والفنون مستمر على الدوام. إن طول عمر لغة القرآن إنما هو برهان جليّ على أصالتها التي لم تستطع لغة أخرى أن تجاريها فيها».